المقياس: فلسفة التاريخ و الحضارة

المستوى: أولى ماستر –فلسفة تطبيقية-

المحاضرة:الثالثة

التفاسير الدينية و الفكرية للتاريخ

الأستاذة: شرماط.ف

1-التفسير المسيحي و الغربي للتاريخ.

لقد توجهت المسيحية نحو تفسير آخر يقرر بأن العناية الإلهية هي التي تتحكم في المسار التاريخي و الأفعال البشرية ،فكان التاريخ مجرد سرد للخوارق وكرامات القديسين ومعجزاتهم، لقد لجأ المسيحيون لإضفاء صفة العناية الإلهية على من هم مسيحيون لتبرير أفعالهم ، و هذا ما ورد في مؤلف القديس اوغسطين "مدينة الله" حيث يقول: " التاريخ مسرحية ألفها الله و يمثلها الإنسان". هذا القول يوضح ان الوقائع التاريخية مسرحية من تخطيط المشيئة افلهية التي وضعت غاية للتاريخ انطلاقا من فهمها للإنسان و علاقته بالله على اساس جوهر الفكرة المسيحية" الخطيئة و الخلاص".و هنا اصبح السلوك الإنسان المسيحي مجرد منفذ للإرادة الإلهية و لذلك كان اغلب المؤرخين قساوسة و رهبانا

حيث اسقطوا المعتقد الديني –المسيحي- على الأحداث التاريخية و هذا ما نجده في التفسيرات التاريخية في الحروب الصليبية،فكل الإنتصارات ترد في تفسيرها بقداسة السيد المسيح و خوارق روح القدس و لذلك صنف التاريخ في هذه المرحلة بأنه خادم للمسيحية و التبشير المسيحي فالكتابة التاريخية لم تتخلص من الرؤية الماورائية للأحداث حيث لا واقعة تاريخية تفسر خارج تعاليم الكتاب المقدس المسيحي.

أما في عصر النهضة الأرروبية تغيرت المفاهيم التي كانت سائدة في القرون السابقة حيث وجه للتفسير اللاهوتي للتاريخ نقدا شديدا، و حعل من الإرادة الإنسانية جوهر الحياة، و أن موضوع التاريخ هو دراسة الانسان و ما حققه من نظم و قوانين و جاء القرن الثامن عشر عصر التنوير ليواصل ما حققته النهضة الأروبية فثار على الكنيسة بما تحمله من افكار عيبية و تفاسير لاهوتية لا طائل من ورائها سوى التخلف و تجاهل قدرات الإنسان من حيث تفاعله مع الطبيعة و تأثيره في حركة التاريخ.

ففي هذا العصر ظهر أول استخدام لمصطلح فلسفة التاريخ مع "فولتير" الذي قصد بها " عرض تحليلي نقدي علمي للتاريخ، و بتعبير أدق يقصد نوعا من التفكير التاريخي، و يتقيد فيه المؤرخ بمقاييسه الخاصة بدلا من الإعتماد على ما جاء في الكتب القديمة."

يرى فولتير أن مهمة الفيلسوف هي الدراسة العقلية النقدية للتاريخ لكي يرفض الأفكار الخرافية و الأسطورية و المبالغات التي وردت في

التراث القديم ،لأن فولتير في دراسته الشاملة للحضارات الإنسانية منذ بدايتها، أكد على أن عامل الدين يشكل عائقا في سبيل حركة العقل الإنساني و تنويره و بالتالي يقف كقوة مضادة لعملية التقدم.

لقد أصبحت فكرة التقدم هي البنية الأساسية في التصور التاريخي للإنسانية لدى أصحاب نزعة التنوير الذين يرون" أن التقدم هو القانون و المعنى الجوهري لتاريخ العلم لأن الإنسان كائن عاقل، و العقل يدعوه الى تحسين أحواله و تمكينه من الحياة السعيدة، و يتجلى هذا التقدم في تطور الفنون و في تهذيب الأخلاق و في إصلاح القوانين..."

و هكذا فقد اعتبروا أن هدف التاريخ العالمي هو السير المتواصل عبر حلقات الزمان لتحقيق التقدم بزعامة العقل البشري.

و بقيت فكرة التقدم تشكل حلم السعادة الذي من أجله تسعى البشرية تحقيقه، على مر العصور و مهما اختلفت الظروف و الأوضاع، و كيفما كانت الأفكار و الحلول الفلسفية التي أعطيت للتاريخ فيما بعد عصر الأنوار حتى العصر المعاصر و فيها احتل الإنسان مرتبة الإله و كان هو البطل في كل المسرحيات التي يصورها التاريخ و يقدمها لنا بتحليل الفلاسفة و المفكرين الذين نجد من بينهم المفكر كوندرسيه الذي عاصر فولتير لقد كان موقف كوندرسيه من المسيحية و نظرية العناية الالهية لم يختلف عن موقف فولتير و ديدرو و انتصر للعقل و للعلم و اعتبر ان التقدم الحضاري يصنعه الإنسان بعقله لقد قدم كوندرسيه نظرة شاملة لتاريخ العالم من هذا المنظور الذي يعتبر أن تاريخ الإنسانية كلها إنما هو

" لوحة تاريخية لتقدم العقل الإنساني." إن دراسة التاريخ الإنساني في نظر كوندرسيه تفيدنا من زاويتين: أولهما تمكننا من اثبات حقيقة التقدم و ثانيهما: أنها تمكننا من تجديد اتجاه هذا التقدم في المستقبل.و هذا ما أكده في ما بعد الفيلسوف الألماني يوهان غوتفريد فون هردر الذي وضح في كتابه" فلسفة التاريخ البشرية": " أن الإنسان هو جوهر هذا التطور تبعا لمقامه المميز في الطبيعة و للخصوصية التي تعطيها لكل شعب و حضارة. و أن الشعوب في تطورها لا تنقطع عن بعضها البعض."و هردر في تحليله لفلسفة التاريخ يقترب من جوفاني باتيستا فيكو الذي جاء قبله بقرن واحد تقريبا اذ يرى فيكو أن كل مراحل التطور الطبيعية التي يمر بها الإنسان لا تخرج عن التاريخ الذي يمر بثلاث مراحل هي: " المرحلة الإلهية، المرحلة البطولية و المرحلة الإنسانية و هذا هو التاريخ المثالي الأبدي للشعوب."

أما فلسفة التاريخ عند الفيلسوف مثالي النزعة هيجل فقد بلغت قمة التأمل الفلسفي حيث تقوم على أساس الديلكتيك و التاريخ هو صيرورة وعي الروح، و التقدم عند هيجل "يعني الوعي اللشري بالحرية في اطار الصيرورة التاريخية لأن التاريخ هو في كل لحظة حقيقة واقعية مليئة بالقيمة و لكنه رغم ذلك انتقال و معناه لا يتحقق الا بالعملية الديالكتيكية كلها على مدى الزمان."

ارتدت فلسفة التاريخ مع مطلع القرن العشرين عن النظرة الشمولية أو الكلية للتاريخ خاصة عند هيجل و نجد فيلسوف الحضارة أرنولد توينبي يفند النظرية الشمولية للتاريخ التي تحاول أن تدرس تاريخ الإنسانية و حضارتها وتجعل من هذا الكل تاريخا واحدا عالميا، فتوينبي يرى بأن التاريخ يتضمن حقيقة الفردية حيث يقول: " ليس المجتمع و لا يمكن ان يكون إلا وسيلة اتصال تؤثر بها الكائنات البشرية الفردية بعضها على البعض الآخر فالأفراد لا المجتمعات هم الذين يصنعون التاريخ البشري."

و اتجهت فلسفة التاريخ في القرن العشرين و جاءت هذه النظرة التاريخية المخالفة لما سبقتها، لتعبر عما شاهدته الإنسانية من مآسي و حروب و ما عاشته من استعمارات و انقلابات سياسية و اقتصادية...، و ما ألحقته هذه الكوارث على الحضارات من دمار و فساد، و عاش الإنسان في هذه الفترة فراغ و بؤس كبيرين و على هذا الأساس شاعت النظرة التشاؤمية للتاريخ التي وصفت حركته بأنها متواصلة و متكررة أي أنها لا تتعدى مرحلة النشوء و النضج ثم الموت.

و هذا ما ذهب اليه شبنغلر الذي تأثر بفلسفة شوبنهاور و نيتشه، و استمرت هذه النظرة التي اعطيت للتاريخ كذلك مع الفلاسفة الوجوديين الذين اهتموا بدراسة الوجود الإنساني من حيث هو جوهر هذه الحياة و مصدرها و فلسفة التاريخ عند ديلتاي كما يقول: " هي فلسفة الإنسان و هو ما ليس ما تلقينا عنه داخليته أو طبيعته الإنسانية، إنه كما يقوله لنا

التاريخ عنه أن تاريخيته هي حقيقة وجوده كما تظهره فلسفة الحياة و فلسفة القيم و الفلسفة الوجودية."

و باختصار فإن الفلسفة الوجودية تجعل من الإنسان الحقيقة الأولى و الأخيرة في هذه الحياة و بالتالي فإن فلسفة التاريخ قد اتجهت إلى فهم الحاضر و تسخيره لصالح العمل الإنساني.

و هكذا يمكننا القول ان دراسة التاريخ لا تنحصر فقط السرد المتسلسل للحوادث، و لا هي دراسة كيفية البحث في الوثائق و استخراج الحقيقة التاريخية و انما التاريخ يتعدى كل المراحل بما فيها قيود التيار الزمني المتواصل الذي لا يتوقف ليصل إلى فلسفة التاريخ التي تبحث بطابعها العقلي التأملي و منهجها التحليلي النقدي ما توصل اليه الوعي البشري باعتباره صانع للتاريخ و هو في الوقت ذاته الباحث الذي يكشف الحقائق.